

نظرية التلقي في الميزان

الدكتور: كبير الشيخ

/قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المركز الجامعي لعين تموشنت

أخذ الاهتمام بالتلقي يتزايد منذ العقد السادس من القرن العشرين ، حيث أصبح القارئ(المتلقي) ذا شأن في النص نفسه ، وطرفا لا غنى عنه في المعادلة الإبداعية ، فكل قارئ أو سامع للنص الأدبي متلق ، يمتلك حظا من الفهم ، و قدرا من التذوق ، و موقفا مما يقرأ و يسمع ، بل غدا المتلقي ارفع مكانة من الكاتب عينه ، إذ غدا اختلاف القراءات هو السلطة الاولى في التعامل مع النص ، يقول شوكنغ " : لم يعد المؤلف و عمله الأدبي يحتلان مكانة الصدارة ، بل انصرف الاهتمام أساسا إلى المتلقي و إلى الظروف الاجتماعية التي تم فيها التلقي " ، لقد بدا من الضروري التركيز لا على الاعمال ومنشئها ، بل على الآثار التي أحدثها هؤلاء المنشئون في زمنهم ، وبعد زمنهم في نفوس المتلقين الذين يدركون قيمة تلك الأعمال ويقررونها ، كما يصرح جوليان هيرش⁽¹⁾

وإذا اعتلى المتلقي تلك المكانة السامية ، فلا بد اذن ان يفرد بالدرس ضمن انموذج خاص ، يعيد الاعتبار الى النص في علاقته الصريحة مع المتلقي الحر والمتحلل من هواجس الانتماء الايديولوجي و التزوع الفلسفي - الدين ارتبطت بهما المراحل الادبية جميعها في أوربا - ، تلك الهواجس التي ما انفكت تفرض توجهات خاصة ، لا تترك لفعل القراءة هامشا من الحرية ، وانما تنصرف بها الى خدمة مصالح محددة ، يقول محمود عباس عبد الواحد " : يبدو

من محتوى النظرية- يعني: نظرية التلقي -، و من الاجواء العقلية والسياسية التي صاحبت ظهورها في الادب الالماني ان اساس المشكلة بين المتناظرين ليس فقط في فقدان التأثير المتبادل ، بل مصدرها الخلافات المذهبية الحادة بين اطراف الحوار من رواد الرمزية والبنوية ، والجمالية الماركسية ، و الشكلية الروسية ، فالنظرية كانت تمردا على تلك المذاهب المنتشرة في المانيا آنذاك ، ولعل اختيار مصطلح "الاستقبال" بالدات كان يمثل لدى اصحابه معنى من معاني التمرد على النقد الماركسي بشكل خاص .⁽²⁾ وهو ما يجعلنا ندرك ان ما يميز نظرية التلقي الالمانية " هو انها تطورت في اطار استراتيجي جماعي ، بحيث كانت هناك قاعدة موحدة تجمع الباحثين الذين يشتغلون في دائرتها ، و على رأسهم هانز روبرت ياكوبس ، وفولفجانج آيزر⁽³⁾ "

و اذا كان ياكوبس و آيزر- وهما أبرز منظري منهج التلقي - يجمعهما اساس نظري مركزي ، و يشتركان في مفاهيم كثيرة بحكم توحيد مصادرها وغايتها ، فانهما ايضا يختلفان في طريقة تحليلهما للعمل الادبي ، و في الفرضيات التي انطلق منها كل واحد ، فقد كان اهتمام آيزر منصبا اكثر على العلاقة بين مكونات النص الداخلية وبين التلقي و القراءة بصفتهما فعلا ابداعيا ، يولد الدلالة النصية ، ففي نظره تمثل القراءة بنية الفعل ، فهي التي ترفع انغلاق النص وتملأ فراغه ، و تصوغه في شكل كلام ، ثم تعيده الى قلب التواصل الحي . أما ياكوبس فيمكن تقديمه على انه المنظر الذي طور التلقي بوصفه ظاهرة تاريخية معيارية ذات طابع يعلو على الفردية ، و ذا سيجري التركيز عليه من قبل منتقدي النظرية و الراغبين في التعرف عليها ، على حد سواء.

ان فكرة كمون القيمة الفنية للنصوص في ما تختزله من جمالية ، و ان القارئ ماهو الا مستهلك باحث عما يريد في هذا النص الذي يكفيه حاجته ، هذا الايمان بعبقرية النص تحت نظرية التلقي منحى مخالفا له ، و قررت ان لا قيمة للنص ما لم يقرأ ، وما لم يكن قابلا لقراءات متعددة ، مستعصيا على ان يستهلك من قراءة واحدة ، و رمت الى تشييد جمالية تلق من نوع خاص ، جمالية لا تقتصر على الداتية و معطياتها ، او قراءات الحدس ، بل تشرك الفهم و الوعي ، و تستثمر مرجعيات كثيرة و متنوعة في التفاعل مع بنية النص ، من خلال علاقة حوارية معه ، انها جمالية تكتنه ميكانيزم التلقي ، وتستقرىء ما يحدث للقارئ وقته ، و كيفية وصوله بنفسه الى حلقات المعرفة و طبقاتها⁽⁴⁾

ان الموضوع الحقيقي للبحث في التلقي يتأسس على عمليات التلقي نفسها ، الا ان التلقي لا يمكن تمثله جملة واحدة يحدث عند لقاء النص والقارئ ، بل يجب ملاحظته وهو يتمفصل الى ثلاثة مراحل ، تتسم كل واحدة منها بخطورتها الخاصة : اد نلاحظ ابتداء : عملية التلقي ، ثم ناتج التلقي ، و التأثير و التلقي . فتتخذ العملية مسارا شبه مغلق ، يحدد مكوناته دوما على سيرورة الفعل القرائي . لأن عملية التلقي لا تحدث بعيدا عن الذات و الوسط و الظرف ونوع التوقع (افق الانتظار) و هي عناصر يتقاطع فيها السيكلولوجي ، و الاجتماعي ، و الفني . اما ناتج التلقي ، و ان كان جملة من الردود الفورية التي تنتاب القارئ اثناء التلقي سلبا و ايجابا ، فانها تشوش اعتقادا مترسبا ، شكلته قراءات سابقة فاضحت ترسم حدود الموقع الذي يتم فيه التلقي الجديد . اما تأثير التلقي فوجهته عكسية اد يرتد إلى الذات ، في اضطرابها و تشوشها ليعدل ، او يحور ، او يثبت الاعتقاد الأولي ، و ليزحزها عن الموقع الافتراضي الى موقع جديد .⁽⁵⁾

في اوائل التسعينات بدأت الكتب التي تتحدث عن نظرية التلقي تطرق الساحة العربية ، و منذ ذلك الوقت حدث نوع من الالتفات الى النظرية ، فبدأ المشتغلون بالنقد يبحثون في كتبها ومصادرها ، كتابها ومفكراتها الاساسيين كما حاول بعضهم ان يطبق معطياتها على مادة عربية ، وصدرت بعض الكتب تحمل هذا الطابع. و أصبحت بعد ذلك فكرة التلقي شاغلا جديدا حل محل البنية ، فجرى الحديث عن التلقي و مشكلات التلقي والقراءة و القارئ والمتلقي . عادت الدراسة تركز على ان ليس ثمة نص ، و لا مبدع ، و هناك قارئ يصنع النص ، هناك متلقي ينجح في أن يقرأ النص او لا يقرأه ، او يقرأه بصورة تلائمه فيقتات عليه ، او يقرأه بصورة أفضل ، ايا كان الأمر ، ليس هناك نص ثابت ، هناك نصوص بقدر ما هنالك من قراء وعمليات تلقي⁽⁶⁾

و لأن نظرية التلقي في اصولها المعرفية ، و مبادئها و مفهوماتها الاجرائية ، تضامنت مع اتجاهات ما بعد البنية في نبذ الشكل الواحد للمعنى ، و تقويض مبدأ الايمان بالملفوظ اللساني كدليل وحيد ، او كوسيط وحيد لبناء جمالية النص و محاوره بنيته ، فقد أصبحت هذه النظرية المحور الذي تدور عليه معظم الاشتغالات النصية في النقد الأدبي الحديث ، و كثرت الأسس النظرية التي تقف موقف التوصيف لمجمل التجربة المعاصرة في علم النص و الاسلوبية ، لقد غدت هذه النظرية في بعدها الآخر وجها من وجوه نظرية الادب ، و قد رأى كثير من الناس الذين (كتبوا عن نظرية التلقي ان ما يجري في مجال نظرية الادب يمكن ان يؤدي في غضون سنوات او عدة عقود على الاكثر الى حدوث انقلاب في مفاهيمنا الخاصة بالادب او تصورنا له)⁽⁷⁾

نظرية التلقي ، كغيرها من النظريات، وليدة سياق ثقافي عام ينتمي إلى مرحلة ما بعد الحداثة في أوروبا ؛ فنظرية التلقي هي عملية زحزحة لمركزية المؤلف تتناغم مع جوهر المشروع الفلسفي لما بعد الحداثة الذي يتحدد في نقد مركزية الذات المفكرة/العقل، تلك التي فُهمض عليها المشروع الحداثي ابتداء من ديكارت.

هذه النظرية أضافت إضافة نوعية إلى الدرس النقدي، لكنها لم تخل من إشكالات ومآزق تعتورها على مستوى المفاهيم وكذا على مستوى الإجراء والتطبيق ؛ ينبغي الإشارة إليها. وقد أشعلت هذه النظرية الجديدة فتيل معارك نقدية ضارية ؛ فمع بدايات السبعينات، راح النقاد الألمان الشرقيون في مدرسة فرانكفورت يوجهون سهامهم إلى نظرية التلقي ممثلة في شخص رائدها ياكوبس، وعُدت نتيجة منطقية لرفض الإقرار بالتشخيص الماركسي لتناقضات المجتمع البرجوازي؛ فهذا روبرت فايتمان يؤكد أن عمل ياكوبس يقع أسير مذهب الذاتية الخالصة عندما يعتقد أن وعي القراء الأفراد هو الذي يحدد التاريخ بصورة نهائية، كما أنه ينتقد ياكوبس قائلاً: " إنه لا يزودنا بأية معايير نستند إليها لتقييم النص أو عملية التلقي والحكم عليهما (8) . * وكذلك ثيودور أدورنو يرفض أي دور تغييري مباشر للفن في المجتمع، وهو بذلك يلغي مبدأ التغير في (أفق التوقعات)، حيث يقرر في كتابه "نظرية علم الجمال* أن الفن العظيم يضيء جوانب من الواقع الاجتماعي، ولكنه ينكره وتوجه أشد الانتقاد له في الوقت نفسه⁽⁹⁾

بسبب هذه الانتقادات لطبيعة فهم ياكوبس للعملية المثثة الأطراف، المنتج الأدبي_النص_المتلقي، أدرك وجوه التقصير في نظريته، فأصبحت اهتماماته ذات طبيعة تأويلية خالصة، فتحول من التشديد على عملية التلقي

إلى التشديد على (التجربة الجمالية)، إذ يقول في رده على أدورنو: "إن بإمكان الأدب والفن أن يلعبا دورا تقدما في المجتمع، وينتقد النظرة النخبوية للفن، ومفهوم استقلالية العمل الأدبي، والتجربة الجمالية نفسها،

ولأنها (جماليات التلقي) منهج ما زال لم يؤمن بعد قواعده، فهي معرضة للهجمات المتكررة من طرف النظرية المسماة بـ "البورجوازية" أو من طرف النظرية الماركسية للفن. فهي من جهة مرفوضة كـ "دمقرطة منافسة للتقاليد أو متهمة باندراجها تحت المادية التاريخية؛ و من جهة أخرى يكشف عن عداوتها الحاذقة للشيوعية. وبالتالي فهناك من يحتقر "هذه الأريكة المريحة الموضوعة بين كرسي البحث الأدبي المتورط سياسيا أو الذي لم يعد مستعملا وكرسي العلم الأدبي للمادية التاريخية" (10).

ويرى ياوس أن النقاش الدائر إلى حد الآن قد تمخض عن ثلاث إشكاليات رئيسية:

أولها: التلقي والفعل (أو الأثر الذي يخلقه العمل)؛ وهو ما يحيلنا على المشكل الهرموني المرتبط بمعرفة أي دور تلعبه المزدوجة سؤال - جواب في المرور من تركيب أحادي إلى تركيب جدلي للمعنى.

والثاني: التقليد والانتقاء؛ كيف يتم فصل الترتيب الثقافي اللاواعي والاكتساب الناتج عن اختيار واعٍ حسب أفق الانتظار الذي يمكننا من تحليل تجربة جمالية معينة.

والثالث: أفق الانتظار والوظيفة التواصلية؛ فحسب كلاوس طراجر (Claus Trager) الذي يعتبر، وعلى حق، السؤال التالي سؤالاً قاطعاً: كيف يمكن للأدب أن يفهم في واقعه الحالي، وكيف يمكن أن يتصور كقوة من بين

القوات التي تصنع التاريخ؟ . "وفي إجابته عن هذه الإشكالات ؛ يقرر جملة من التراجعات وإعادة صياغة لأفكار سابقة⁽¹¹⁾ .

بالتركيز على المفهوم المحوري لهذه النظرية، أي القارئ، الذي يرتفع عندها إلى مستوى ضامن البقاء والاستمرار للنص، حيث يرى ياوس) : أن العمل الفني لا يكون له البقاء إلا بواسطة جمهور) ، نتساءل : من هو هذا القارئ الذي تدعونا نظرية التلقي إلى الاهتمام به ؟

ليس بين منظري ونقاد" نظرية التلقي "اتفاق على ماهية هذا القارئ، ففي بداية ظهور" جمالية التلقي "تبلورت هذه النظرية بوصفها علما لدراسة "تاريخ الأدب . "فياوس مثلا يطرح نظرية التلقي بوصفها منظورا تحليليا للتاريخ الأدبي، مستثمرا غادامير وهوسر في صياغة مفهوم " أفق التوقع " ، فيما يرى آيزر في " علم جمال التلقي "منهجاً لدراسة النص الأدبي من حيث هو علاقة تواصلية مع القارئ الفرد؛ لذا نجده يتحدث عن القارئ الضمني، بوصف الفعل الكتابي فعلا قصديا يقوم على استهداف القارئ، وإحداث تأثير فيه . فكل نص يطرح نمط قراءة خاص، لذا يجب على الناقد أن يدرس ويستخلص نظام القراءة الذي "يقترحه" النص لتحقيق الاستجابات المنتظرة من القارئ⁽¹²⁾ .

وفي السياق نفسه، يمكن أن ندرج موقف أمبرتو إيكو، في كتابه المعنون بـ " القارئ داخل النص "؛ فالكاتب يحس عند صياغته لنصه بعوائق لسانية وثقافية ومجتمعية تعوق انطلاقه في التعبير، لذا فالنص حسب) إيكو (لا يقول كل شيء ومن ثم فهو يحتاج إلى القارئ . وعلى الناقد أن يحدد نمط " القارئ النموذجي"، أو "القارئ المثالي "الخاص بالنص الذي يدرسه، وهو النموذج

الذي يتوقعه المؤلف ويتمناه، ليس ليقرأ ملفوظات نصه ، بل أيضا مسكوتاته وما بين سطوره⁽¹³⁾.

لكن في منتصف الثمانينات سيرز بشكل واضح نقاش حول جدوى البحث عن قارئ مفترض بين تلافيف النص، وإهمال القارئ الفعلي المتحقق عينيا. حيث قدم "ميشيل بيكار" في كتابه "القراءة بوصفها لعبة" مفهوما للقارئ المتعين، أي القارئ الفعلي الذي له كينونة وجودية في الواقع، كما تقول "آني روكسيل"، وليس القارئ الضمني أو المتخيل الذي انسقت إليه أعمال "آيزر" و"أمبرتو إيكو". "بيد أن هذا التصور الجديد للقارئ الذي اقترحه "بيكار"، تعوقه أيضا عوائق عدة، ومن أهمها أنه لو اتخذ منطلقا إلى دراسة تاريخ الأدب ، فسنعجز عن تناول أدباء ومبدعين مغمورين، وسنكون مضطرين إلى اختيار المؤلفات التي أثارت اهتمام النقاد /القراء، وبذلك سنغفل ثروات مهمة في تاريخ الأدب⁽¹⁴⁾

وهذا الاعتراض يعوق أيضا التطبيق الإجرائي لمنهج التلقي عند "ياوس" و"ستانلي فيش"، وآية ذلك ماذا بإمكان منهج نظرية التلقي، بمفهوم بيكار للقارئ /المتلقي، أو مفهوم "ياوس"، أو "ستانلي فيش" الباحث عن جماهير القراء، أن يفيدنا في دراسة أشكال تلقي نصوص وتآليف مهمة. أليس من الأولى أن ندعو هنا إلى أن نشتغل بما يمكن أن نسميه بمنهجية عدم التلقي، أي دراسة أسباب إهمال هذه النصوص؟⁽¹⁵⁾.

و قضية التلقي على يسرها ، لا تخلو من التعقيد اذ يشتبك فيها قصد المرسل-المؤلف- باستبطا المستقبل -المتلقي- ، و اذا كنا نرتاب في فهم ما يبدع المبدعون في عصرنا من نصوص حديثة فان ربيتنا في فهم النصوص القديمة قد تكون اشد ، لان الحديث من صنع قوم تربط بنا بهم ثقافة

ومصطلحات تتحدد معانيها بالحوار ن و القديمة صنعة قوم بُعد العهد بهم
وتقادمت مصطلحاتهم و تراكيهم و اساليهم التي تنقل الينا افكارهم
ومشاعرهم⁽¹⁶⁾

ينجم عما ذكرت ان تعايش المؤلف و المتلقي في بيئة واحدة ، وعصر
واحد يتيح للنص حظا من الدرس لا يتاح له مثله اذا اختلف الطرفان في البيئة
او في العصر او فيهما جميعا ، و ينجم عنه كذلك ان المتلقي الحديث للأدب
القديم لا يستطيع ان يقف على جوهر النص المدروس ، ما لم يقف على تاريخ
الفترة التي ظهر فيها النص ، فان اجتراً على الحُدس قبل الدرس وحلل وعللل
، و حاكم و حكم جاءت احكامه في حدود التخمين الذي لا يرقى الى
اليقين⁽¹⁷⁾

لقد كان لهذه النظرية جاذبية في فترة الثمانينات ، لأنها اعطت شيئا
مغايرا لما سبق ، للاهتمامات السابقة ، كثيرون من الناس اهتموا بها ، كثيرون
عملوا في ضوءها و لعلها ما تزال الى اليوم، لكن سيرتبط بها في بدء او سيحل
محها الاتجاه التأويلي الذي هو *الهيرمينوطيقا*، سيكون لها شأن في فكرنا
النقدي في منعطف هذا القرن الجديد(18)

إن منهج التلقي لا يزال حديثا نسبيا، وينبغي أن يُترك له حيز من
الزمان كاف ليشبث جدارته على الساحة النقدية ، كما ترك لغيره من المناهج ،
خاصة وأن أصحابه لا يزالون يعملون على تعديله ، وهو بطبيعته مفتوح على
التعديل .

الاحالات :

- (1) قراءة النص وجماليات التلقي ، محمود عباس عبد الواحد ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1996، ص10
- (2) قراءة النص وجماليات التلقي ، محمود عباس عبد الواحد ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1996، ص10
- (3) ندوة نظرية التلقي ، اشكالات و تطبيقات ، كلية الآداب ، الرباط ، النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1993 . احمد ابو حسن- ضمن ندوة نظرية التلقي-اشكالات و تطبيقات.ص2.
- (4) (فعل القراءة) نظرية جمالية التجاوب في الادب (، فولفغانغ ايزر ، تر: حميد لمحمداني و الجليلي الكدية ، مكتبة المناهل، ط1 1994 ، ص11.
- (5) (القراءة و الحدائة مقارنة الكائن و الممكن في القراءة العربية ، حبيب مونسى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2000، ص243.
- (6) انظر : استفيد من البنوية في الحدود التي تفيدها حقيقة-عزالدين اسماعيل ص27
- (7) انظر :الخطاب و القارىء -حامد ابو احمد-ص15
- (8) (في كتابه" البنية والمجتمع في التاريخ الأدبي "الصادر عام. (1976)
- (9) نظرية التلقي، أحمد زياد محبك.ص54 .
- (10) انظر :وارنكن :في الدليل .ع 14، 1971، ص 366.
- (11) هانز روبرت ياوس ، جمالية التلقي : منهج جزئي ، فصل من كتاب، تر : خليفة بياهورى.
- (12) (الطيب بوعزة ، صحيفة العرب ، السبت 19 سبتمبر 2009 م ، ع7769
- (13) (الطيب بوعزة ، صحيفة العرب ، السبت 19 سبتمبر 2009 م ، ع7769
- (14) (الطيب بوعزة ، صحيفة العرب ، السبت 19 سبتمبر 2009 م ، ع7769.
- (15) (الطيب بوعزة ، صحيفة العرب ، السبت 19 سبتمبر 2009 م ، ع7769.
- (16) اغتيال المؤلف بخنجر المتلقي -غازي طليمات ص32.
- (17) (الخطاب و القارىء-حامد ابو احمد-ص15.
- (18) (استفيد من البنوية في الحدود التي تفيد فيها حقيقة -عزالدين اسماعيل ص28